الخلفية الفكرية للمصطلح في العلوم الانسانية والشرعية

بقلم : الدكتور / أحمد رحماني

تمهيد :علاقة المصطلح بالفضاء الفكري: يتحكم الفضاء الفكري للأمة في أجهزتها المعرفية و المعلوماتية تحكما قويا لا يقل عن تحكمه في الجهاز المعرفي و المعلوماتي للفرد، حتى ليمكن القول بأن الفضاء الفكري أشبه بالمجال المغناطيسي الذي يشد الأشياء المنتسبة إليه شدا عنيفا كلما دخلت مجاله.

وقد تؤدي هذه المغناطيسية بالباحث الذي لم يخرج من المجال المغناطيسي، أو ذلك الذي لم يستطع أن يتخلص من قوة جاذبيته، إلى أن يستخدم المصطلحات وفق ذلك المجال. ونتيجة لذلك تعددت استخدامات المصطلح الواحد، تبعا لتغير المجال المغناطيسي الذي ينتمي إليه باحث ما، و يزداد هذا التعدد كلما كثر استخدام المصطلح في المجالات الفكرية و الثقافية المتعددة؛ إلا أن المصطلحات في هذه الحال تصطبغ بصبغة المجال المغناطيسي الذي تتكئ عليه.

وعليه فإن قراءة المصطلح لا يفهم فهما صحيحا؛ إلا في الإطار الفكري والحضاري الذي أنجز فيه، فهو تابع لهما لا يفهم إلا بفهمهما فهما دقيقا.

وقد لاحظ ابن القيم الجوزية، وهو بصدد دراسة عدة مصطلحات قرآنية منها؛ الطبع والختم والقفل والغل والسد والغشاوة، أن العقول مختلفة في كيفية التعامل مع هذه المصطلحات التي ترد في الآيات القرآنية تبعا للفرق التي تنتمي إليها، فقال:" قد دخل هذه الآيات و نحوها طائفتا القدرية و الجبرية فحرفها القدرية

* أستاذ الدراسات القرآنية ورئيس المجلس العلمي بمعهد العلوم الإسلامية بباتنة.

بأنواع من التحريف المبطل لمعانيها و ما أريد منها".(1)

و هذا يعني أن مشكلة العلاقة بين المصطلحات و الأفكار كانت مطروحة منذ القديم؛ حتى في إطار الثقافة الإسلامية الصرف، مما يدفعنا إلى الحديث عن ذلك.

مشكلة المصطلح عند القدماء:

قد لاقى القدماء جميعا -النقاد والفلاسفة والعلماء و الباحثون- من المشقة في وضع المصطلحات ما نلاقيه اليوم، وذلك أن ما ترجم لهم من معارف يحمل من المصطلحات ما لا قبل للعربي به؛ إما لأن طبيعة اللغة والنمط الفكري كانا يختلفان اختلافا واضحا من مجتمع إلى مجتمع، وإما لأن مجالا معينا من مجالات المعرفة كالمسرح والفلسفة والأخلاق كان يتميز بسمة بارزة في أمة، ولم يكن له وجود في أخرى، فلما ترجمت تلك النصوص جميعا، اصطدم بها القراء قديما كما نصطدم بها نحن اليوم؛ و لكن ماذا كانوا يصنعون؟

إن الفارابي يمكن أن يكون مثالا لذلك في حديثه عن هذا الأمر، إذ استوقفه أمر تعريب مصطلحات مثل (طراغوديا، يثرمبن، قوموذيا، أيامبو، دراماطا) و غيرها من المصطلحات كثير، و لنستمع إليه و هو يتحدث عن الفوائد النفسية للألحان، وعلاقة ذلك بالانفعالات والتخيل فيقول: «وأما فضول النغم التي بها تكسب انفعالات النفس فجلها أيضا ليست لها عندنا أسماء (مصطلحات)، وإنما نشتق أسماء أصنافها من أسماء أصناف الانفعالات، فلذلك يجب أن نعدد الانفعالات ثم نجعل أسماء هذه الفصول من فصول النغم مأخوذة من أسماء تلك، فيسمى ما يكسب الحزن؛ إما المحزن، وإما الحزني، وإما التحزين. وأحسب بعض الناس يسمي هذا الصنف من الفصول (التحزينات) وما يكسب الأسف أسفيا وما يكسب الجزع جزعيا... وأن تجعل أسماء غير هذه الأشكال بحسب ما هو معتاد عند أهل المعرفة باللغة من أهل ذلك اللسان، وكذلك في سائر الانفعالات". (2)فلماذا اتجه الفارابي إلى هذه الوجهة؟

إنه لم يعرب المصطلح؛ وإنما حاول أن يترجم، و في الأحسن أن يضع المصطلح ويشتقه من الوظيفة التي يقوم بها، وبذلك يضمن ارتباط المصطلح بالعطاء الحضاري للأمة فكرا وعاطفة، والسبب في ذلك هو إدراك هذا

المفكر الفيلسوف علاقة **حيوية المصطلح** بنمط الحضارة التي أنشأته إذ "أن نقل الوسائل أو نقل الأهداف أحيانا أمر ممكن، أما الحيوية التي تغمر قلب حضارة ما فأمر لا يمكن نقله ".(3)

وقد عالج هذه القضية كما يتصورها القدماء الجابري في كتابه القيم "تكوين العقل العربي"، أما الآن فعلينا أن ننظر إلى المشكلة لنعرف كيف عولجت في ضوء الخلفيات المعرفية.

والحق أن المصطلح لا يوظف، بل لا يوضع أساسا إلا وهو مرتبط بالفضاء الفكري للأمة التي أنتج فيها؛ سواء أكان ذلك المصطلح يتعلق بالعلوم الإنسانية أو العلوم التكنولوجية أو العلوم الشرعية.

وإذا كان الدكتور نجيب الكيلاني يعتقد أنه " لن تتضح ملامح الأدب الإسلامي أو تستكمل إلا بالاهتمام بهذا الجانب الحيوي، جانب المصطلحات الخاصة بأدبنا الإسلامي "(4)، فإن ذلك ينسحب على كل المعارف التي نطمح إلى أسلمتها؛ لذلك لابد أن نتساءل: هل يمكن أن يتم ذلك ؟ وما أهمية المصطلح بالنسبة للعلوم الإنسانية ؟ وهل أسلمة المصطلحات أمر ممكن أم لا معنى لذلك ما لم تنجز عملية أسلمة المعرفة بصفة عامة ؟.

لا جرم أن التفكير الإسلامي الذي ينطلق في تحليله للظاهرة العلمية، وفي تفسيره أو تأويله للنص من حيث هو نص؛ ليكشف الأدوات التي شكلت النص من حيث هو لغة، ومن حيث هو فكر؛ إنما يجعل في حسابه دائما جانب « العقيدة »، ومن ثم يحدث الشعور بالصدمة باستمرار إزاء « المصطلح المعرب » الذي غالبا ما يعجز عن إحداث " الكفاءة " التعبيرية التي تنشئ بحق معادلا موضوعيا ليستوعب الإشعاعات والظلال والدلالات المختلفة التي تلتصق بالفضاء الوجداني والفكري للمصطلح، و التي تعطيه الحيوية أصلا .

وعلى هذا الأساس كان ضروريا أن نبدئ النظر ونعيد في أمر المصطلح، حتى يتحقق لنا ذلك التناسب بين أسلمة العلوم الإنسانية، وأسلمة المعرفة التي تعد أمرا صعبا إذا لم ينجز في إطار أسلمة المعرفة بصفة عامة، والإطار النظري للعلوم الصرف حيث يلتقي تصورها الفكري مع العقائد .

ولعل من البدهي القول بأن أسلمة المصطلح يطرح على مستويين :

1- مستوى العلاقة بالتراث الإسلامي.

2- مستوى العلاقة بالغرب المعاصر .

فلا بد إذن من تجديد النظر في المصطلح ليتناسب مع حداثة النص الإسلامي، تطبيقا وتنظيرا من جهة، وليجد انسجاما مع اللغة التي يكتب بها من جهة ثانية؛ لأنها الأقدر على إبداع تلك المصطلحات المكافئة لطبيعة العلوم الإسلامية، ليس فقط بالنسبة للقارئ والناقد كوسيط في جميع المعارف الإنسانية، ولكن أيضا بالنسبة للمتلقي الذي لا يتلقى بوعي كامل إلا ما توفر على عامل مشترك، ومرجعية مشتركة بينه وبين الناقد والباث؛ لتعطي الجذر اللغوي للمصطلح ظلاله كاملة، وقد عبر عن هذه القضية الدكتور طه عبد الرحمن تعبيرا حسنا حين قال :

" لقد غلب على الباحثين العرب في وضع مصطلحاتهم العلمية وبناء أجهزتهم الوصفية والتفسيرية، الاشتغال بقوالب ومعايير اللغات الأجنبية: الفرنسية، والإنجليزية، فلا نكاد نجد عند معظمهم من المعاني العلمية إلا ما كان نقلا حرفيا لمصطلحات أجنبية من غير وعي بأصول بعضها النسبية، وفائدتها المحدودة، وبلغ سلطان هذه المعايير على هؤلاء درجة أصبحت معها ألفاظهم " أشكالا" منقطعة الصلة بدلالاتها اللغوية وفاقدة لأسباب الإنتاج والتغير في الفكر العلمي. (5)

فالمصطلح المعرب والدخيل سرعان ما يفقد حيويته اللغوية من جهة الصوت والغرض معا، على أساس أن " اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "(6)، كما يقول ابن جني، أي أنها ترتبط بمستوى المفهوم بقدر ارتباطها بمستوى المنطوق والمسموع، وبذلك يفقد القدرة والحركية في الفضاء الجديد؛ فيتحول إلى جسم هامد يتصف بالجمود والشكلانية، وبهذا يفقد كذلك حرارة الطاقة الإنتاجية والإبداعية التي تسهم في التغيير الفكري والتطوير المعرفي والثراء الشامل، لأن هذه النتائج ترتبط بالظلال التي يلقيها المصطلح باعتماده على الجذور التي تنبثق عنها صوتا وغرضا، منطوقا ومفهوما، لفظا ومعنى، مادة وروحا . ذلك لأن المصطلح الذي يستمد وجوده من فضائنا

الفكري الطبيعي- كما يقول ابن خلدون- (7) يحمل في طياته كل العلاقات التي ترتبط بذلك الفضاء مادة وروحا، كما يحمل قابليته للتشكل الصرفي الذي يمده باستمرار بمرونة لغوية ودلالية؛ تضمن له الاشتقاقات التي تعين على التحديث الفعلي والتجديد الحقيقي، تلك التي لم يكن المصطلح ليحملها في حالة ما إذا كان مصطلحا " مجلوبا " .

إن هذا يعني أن المصطلح يكتسب « الفاعلية » في إطار « فضاء فكري » محلي معين، ويفقدها إذا كان " مجلوبا "؛ لأنه باختصار شديد وليد حضارة لا يتنفس تنفسا طبيعيا إلا في فضائها الفكري، فالمصطلح الموضوع في فضائنا الفكري يفتح أمامنا طرقا مختلفة للتفكير والتوليد، ويمهد سبيل الإبداع والإنشاء في هذا المجال، ويضع العقل الباحث والناقد أمام الرؤى النقدية و الفكرية و المعرفية التي تتسم بوضوح المعالم لوضوح " المعتقد " و" الجذر اللغوي" اللذين انبثق عنهما ذلك المصطلح.

أما المصطلح " المجلوب " فلا يمكننا من ذلك لارتباطه عقديا ولغويا ودلاليا بأصوله الحضارية التي جلب منها وولد فيها، فهو لا يتنفس تنفسا طبيعيا إلا فيها.

وقد انتبه الدكتور طه عبد الرحمن لشكلانية المصطلحات المجلوبة كما رأيت ، فاستفزه الأمر ليقول: « وسعيا وراء الاستقلال عن المعايير الأجنبية في الوصف وإنتاج المعرفة، اجتهدنا قدر المستطاع في الأخذ بأسباب اللغة العربية في التعبير والتبليغ ووظفناها في التنظير لموضوع هذا البحث، ومن مظاهر هذا التوظيف العلمي أننا ميزنا بين مراتب ثلاث في السلوك الحواري : "الحوار" و"المحاورة" و"التحاور" ما كانت لتتأتى لنا في لغات أخرى، ووضعنا عليها القيود الضرورية والكافية لتجعل منها أداة إجرائية مقيدة في التصنيف والوصف، ولعلنا نكون بذلك قد مهدنا الطريق لممارسة علمية باللسان العربي في ميدان تحليل الخطاب".(8)

ظاهرة الاختزان المعرفي في المصطلح :

إننا حين نتأمل بعمق المصطلحات المستخدمة مثل "سوسيولوجي"، "تكنولوجي"، "رومانتيكي"، و"كلاسيكي" و"سريالي" نحس إزاءها بغموض وتشويش يعود أساسا إلى ما أحب

أن أسميه هنا بـ "**المخزون المعرفي للمصطلح**"؛ إذ أن المصطلح يولد أبدا - كما سبق القول - في فضاء فكري يختزنه كطاقة فاعلة مادام يستخدم في مجال ذلك الفضاء الفكري، فإذا نقل إلى فضاء آخر فقد حرارته وفاعليته و حيويته فدخله التشويش والاضطراب .

ويمكن أن نسوق -على سبيل المثال- رأي الدكتور نجيب الكيلاني في مجال المصطلحات النقدية لبيان ذلك، إذ يقول " المصطلحات الكثيرة التي يكتظ بها النقد الأدبي وتاريخ الآداب العالمية، والمدارس الفنية المختلفة مصطلحات اضطربت واختلطت وفقد أغلبها معناه ، وهذه المصطلحات ولدت في ظروف خاصة أو ارتبطت بمناسبات وأيديولوجيات و لغات معينة ، بدأ ذلك منذ الإغريق بتصوراتهم الدينية و الأسطورية والفلسفية، وظل توليد المصطلحات ساريا عبر العصور المختلفة، ولما جاءت النهضة العلمية الأوربية ، وبرزت إلى الساحة علوم جديدة، كالفيزياء والجيولوجيا والرياضيات وعلم النفس والاجتماع والمدارس التاريخية المستحدثة ، استطاعت كلها أن تمد الأدب بتصورات وتفسيرات ومصطلحات جديدة ، فسمعنا التاريخ النفسي أوالبيولوجي والاجتماعي للأدب" (9).

وهذا يعني أن المصطلح يولد في فكر معين يرتبط به من جميع الوجوه الاجتماعية والنفسية والصوتية،والعقدية والفكرية والمنهجية ارتباط الجنين بأمه ،وهذا الارتباط يصدق على المصطلحات في أي مجال معرفي وضعت فيه،سواء أكان مجالا معرفيا فلسفيا أو عقديا أو أي فرع من فروع المعرفة الدينية وغير الدينية. حتى إننا لنجد المصطلحات النقدية الموضوعة في فترة التقدم العلمي تملك القدرة - بسبب طبيعة المخزون الذي تحويه - على توجيه الفكر منهجا وتصورا .

ومن هنا نقول: **إن المصطلح يتميز بخاصية " التخزين المعرفي".**

ولكن ماذا يترتب على هذه الخاصية؟

إن الذي يترتب على ذلك أمر هام له عدة مظاهر:

1- منها أنه يختزل أنماطا معرفية معينة، لا يمكن أن تستثيرها في ذهن المتلقي إلا إذا كان مرتبطا بها وجدانيا؛ لأن

كثيرا من تلك الأنماط تصبح جزءا من اللاشعور، إذ هي مبثوثة في المجتمع، ممتدة الجذور في تاريخه.

وفي هذه الحال التي ينبت فيها المصطلح من لغة التداول الاجتماعي للمجتمع، ويختزل في الوقت نفسه أنماطا معرفية، تساعد أفراد المجتمع على التخاطب والحوار دون لبس أو تأويل بعيد، يخرج النص عن مدلوله، يصبح أمر توليد الأفكار سهلا مادام المصطلح واضح المعالم بين الدلالة ، ويصبح الحوار والجدال أنفع لكون المتحاورين لا يجدون مشقة في " **تعويض القول المحذوف** " تعويضا ذهنيا ينهض به عامل " الاختزال المعرفي"الذي يحتوي عليه المصطلح، وذلك لأن " كل أصل في اللغة الإنسانية يكون أصلا تبليغيا تدليليا توجيهيا لو كان لفظا واحدا لاغير · فقد يقدر في الذهن ماليس له تحقق في العين" .(10)

2- ومنها أنه يصون الفكر النقدي من الميوعة التي غالبا ما تصيب النقد الذي لا تملك مصطلحاته مرجعية محكمة، ولعل الدكتور طه عبد الرحمن، على حق حين اشترط في وضع المصطلح صفتين :

أ- التأنيس.

ب- التسييس.(11)

وهو يعني **بالتسييس**، مراعاة القيم الحضارية من حيث الاتفاق والاختلاف بين الحضارتين، المنقول إليها والمنقول منها؛ إذ أن المصطلح المنقول كثيرا ما يكون صدمة للقارىء في الحضارة التي تختلف - بالطبع- قيمها عن قيم حضارته، فيكون التسييس بهذا المعنى إدخال المصطلح بلطف، تماما كما كان يفهم الجاحظ مصطلح "**التسييس**" ويوظفه.

ويعني **بالتأنيس** أن المصطلح لابد أن يكتسب قوته من قدرته على المشاكلة والهيمنة على جوانب تشمل العقيدة والأخلاق والعرف والدلالة اللغوية والصياغة الصرفية، فإذا خالف جانبا من هذه الجوانب كان بمثابة الكلام الحوشي الذي لم يتعوده الناس في كلامهم، فهم أبدا ينفرون منه، وقد لاحظنا أن الأمة تحتاج مدة طويلة لكي تستأنس بمصطلح ما، استئناسا شكليا، مثلما كان الحال بالنسبة لمصطلح "التلفزيون"، فما بالنا لو أننا كنا نهدف إلى الاستئناس به استئناسا جوهريا؟.

أمثلة للبيان:

ولبيان ذلك نسوق عدة أمثلة في مجال النقد الأدبي على سبيل المثال، لنقاد ربما لم يفكروا في قضية الأسلمة المعرفية حينما ناقشوا بعض المصطلحات:

1. مصطلح السيميائية:

يقول أحد النقاد في معرض حديثه عن التعريف بالسيميائية الأدبية.

"إن أهم المشاكل النظرية المتعلقة بالسيميائية، تداخل المصطلحات وتشعبها واختلاف مضمونها حسب الألسنيين، ولذلك فإنه ينبغي لنا أن نحلل - على الأقل- مدلول المصطلحين الأساسيين المستعملين وهما :(السيميائية S'emiotikue والسيميولوجيا Sémiologie) لنبين وجوه العلاقة بينهما. إن هذين المصطلحين مترادفان في مستوى المعنى المعجمي، إذ أنهما يستعملان في الأصل للدلالة على علم في الطب موضوعه دراسة العلاقات الدالة على المرض، وقد بقي هذا الترادف في مستوى الاستعمال الاصطلاحي عند البعض كما هو الشأن بالنسبة إلى صاحبي "المعجم الموسوعي لعلوم الإنسان" إذ يعتبران السيميائية أو السيميولوجيا هي علم العلاقات....وقد انعكس هذا الاختلاف في دلالة هذين المصطلحين في اللغة العربية، إذ من الباحثين من يترجم لفظ « Sémiologie» بعلم العلامات ولفظ" S'emiotikue" بالعلامية ومنهم من اكتفى بتعريب لفظ « Sémiologie » واقترح ترجمة تدل على مقصد معين من مقاصد علم العلامات فقال: إن علم اللغة جزء من علم أعم هو علم العلامات (ألسيمولوجيا) فهذه الترجمة رغم أنها تعبر عن قضية هامة في علم العلامات وهي دراسة العلاقات بين العلامة والمعنى أو بين الدال والمدلول حسب مصطلحات الألسنية، فإنها لا تستوعب مضمون علم العلامات، وإنه من الأفضل أن تترجم لفظ " S'emiologie " بالعلامية أو علم العلامات، وهو مصطلح يفيد التعميم ويصلح للدلالة على علم العلامات العام، بينما نترجم لفظ " S'emiologie " بالسيميائية ونخصصها لوصف أنظمة خاصة من العلامات وضمنها النظام العلامي الخاص بالنص ". (12)

من خلال هذا المثال يمكن أن نستنتج عدة ملاحظات حول

مشكلة المصطلح سواء المعرب أو المترجم :

1- اعتراف الكاتب بتداخل المصطلحات وتشعبها، واختلاف مضامينها تبعا للمجالات التي توظف فيها.

2- إن مصطلحي السيميائية والسيمولوجيا المستخدمين في الأدب يستعملان أصلا في العلوم الطبية،وهذا يعني أنهما قد نقلا خارج المجال الأساسي .

3- انعكس الاختلاف الموجود بين المصطلحين في اللغة التي اعتمدت (فرنسية أو إنجليزية) في دلالتيهما في اللغة العربية، فاستعملت أحيانا بلفظ " علم العلامات " في مقابل " العلامية " اعتمادا على الترجمة، واستعملت مرة أخرى بلفظ " علم العلامات " في مقابل " السيميائية ".

ولكن هل يمكن أن تختزن المصطلحات هنا الفضاء الفكري؟ ثم أي فضاء تختزنه كمرجعية تعين على فهم أبعاد المصطلح؟ هل هو الفضاء الفكري الذي أنشئت فيه أم الذي ترجمت إليه ؟ وإذا كان هذا بالنسبة للمصطلح المترجم فكيف الحال بالنسبة للمعرب والدخيل،وهو كثير ما يستعمل نتيجة لعوامل منها الشعور بالنقص؟ وقد بين ذلك الدكتور حسن ظاظا حيث قال : "أما إدخال ألفاظ أجنبية للتشدق والتفرنج فذلك إسهام في إضعاف اللغة العربية، والذين يفعلون ذلك يبدأ المرض في نفوسهم بشعور وهمي بالانتماء الفكري إلى مجتمع غير عربي فيجتثون أنفسهم من أمة العرب، وهؤلاء لا وزن لهم في الدخيل الذي يستعملونه بدل العربي المساوي له في المعنى المتفوق عليه في الأصالة مع جودة الجرس وانسجام الرنين...، هذا التحذلق بالدخيل الذي لا تمس إليه الحاجة ليس بدعا في عصرنا ومجتمعنا بل نجده في كل العصور واللغات والمجتمعات، وقد أشار إليه الجاحظ في البيان والتبيين". (13)

فالاستخدام للمصطلح في مجالنا الثقافي بلغته الأصلية التي ولد فيها، وهي مخالفة للغتنا ، له خطره ليس فقط على مستوى الغزو اللغوي، ولكن على مستوى الغزو الفكري بسبب كون المصطلح قد ولد في فضاء فكري، فهو يختزن شحناته كلها، مما يحول دون فهمه كدخيل من جهة، ويؤدي إلى "الانتماء الفكري إلى مجتمع غير مجتمعنا" من جهة ثانية كما يؤدي في النهاية إلى أن نفقد الأصالة، التي بها وحدها

يمكن التطور والابتكار والإبداع كما أشرنا في موضع آخر.

إن هذه المشكلة يشعر بها حتى دعاة التغريب الذين يفضلون الحفاظ على الظلال التي يحملها المصطلح في لغته الأصلية، أي أنهم يفضلون الاحتفاظ بـ "الفضاء الفكري" الذي يختزنه المصطلح.

2. مصطلح الرومانسية :

ويمكن ان نذكر كمثال لذلك الدكتور علي شلش الذي دافع دفاع المستميت على تعريب مصطلح "رومانس" ورأى أن "لاحرج في نقل المصطلح إلى العربية على صورته التي استخدمناها في العرض السابق لتاريخه ومعانيه، وهذا هو نفسه ما حدث لمصطلح "الرومانتيكية " حين لم تف الترجمة بمعانيه وظلاله المتعددة، فاندثرت صيغها السابقة بسرعة وبقيت صيغ تعريبه". (14)

وهو يرى كذلك أننا حين نترجم هذا المصطلح بعبارة "قصة البطولة والفروسية" إنما نفقده كثيرا من ظلاله مثل الغرابة والجنوح إلى الخيال والإسراف في العواطف وهكذا".(15)

فالدكتور علي شلش يميل بحماسة شديدة إلى التعريب حفاظا على الفضاء الفكري أي الظلال، ولكنه ينسى أننا بالاعتماد على التعريب من أجل الظلال ليس إلا توهما يحدث لكل من يحسن اللغة التي عرب منها المصطلح ورضع معها الفضاء الفكري، أي أنه قد صار في تلك اللغة بمنزلة أهلها بحيث يستدعي المصطلح عنده – كمتلق – جزءا مقبولا من الظلال، وإن كنت جازمًا بأن المصطلح لا يمكن أن يستدعي الفضاء الفكري الذي ولد فيه إلا عند أهله وذويه بالأصالة.

ودليلنا على ذلك أن الدكتور علي شلش نفسه قد أقر بمثل ذلك قائلا : "ولعلنا أيضا نتفق بعد هذا كله عن أن مصطلحي الرومانس والرومانتيكية مما يصعب ترجمته ويسهل تعريبه، ولكن الخلط بينهما عند التعريب كما هو حادث اليوم من شأنه أن يضعف استيعابنا لهما". (16)

كما لاحظ كذلك أن مصطلحي "الواقعية" و "الرمزية" قد نجحت صيغ ترجمتها في العربية وشاعت حتى قضت على الصيغ المعربة مثل"الرياليزم" و"السيميوليزم". (17).

وأحسب أنه قد اتضح لنا جليا أن"الترجمة" على نقصها أهم من التعريب واعتماد الدخيل، وأفضل من ذلك كله"وضع المصطلحات"، إذ هذا هو الطريق السليم في

البحث العلمي والأدبي و غيرهما من مجالات المعرفة الإسلامية، لأن ذلك أمكن في تلبية كل الحاجات الأساسية التي يصنع منها الكيان الثقافي للإنسان؛ من عقل وعاطفة وخيال ودين ولغة، وغير ذلك مما يطلق عليه ظلال المصطلح .

ولعل الذي شجع الدكتور بسام ساعي على أن يضع كتابا بعنوان " الواقعية الإسلامية " إنما هو وضوح الدلالة التي ترسلها لفظة " الواقعية " إذ حين ترجمت سمحت بصيغتها مترجمة كما سمحت صيغ أخرى مثل " الرمزية " و " الألسنية " و " البنيوية " للتأصيل لها بحسب الجذور اللغوية من جهة والمعطيات الحضارية التي تنتمي إليها من جهة أخرى، والتي تحمل أزكى تصور، وأسلم فكر عرفته البشرية، لكونه يحتوي الثوابت التي تصون الفكر من الانحراف والدجل، كما أوضحنا ذلك في موضعه، وهذا يبين أن أفضل طريق للمصطلحات سيبقى هو الترجمة والوضع، ولكن هذا يفرض علينا التعرض لمشكلة الانفتاح على المصطلح الغربي.

مشكلة الانفتاح على المصطلح الغربي: لكي نتحدث عن الانفتاح على المصطلح الغربي، كان واجبا علينا أن نبين قضيتين أساسيتين :

أ- علاقة المصطلح بالفضاء الفكري الطبيعي والصناعي .

ب- الفرق بين تعريب المصطلحات وترجمتها .

وقد بينا أن المصطلحات تولد في فضاء فكري، تختزنه في بنيتها بصورة ما، يترتب عليها أمر هام، هو تعويض المحذوف عند التلقي، كما بينا أن الابداع في مجال الفكر النقدي في العلوم الانسانية يتوقف على الاعتماد على المصطلحات التي تحمل ظلالا وإشعاعات فكرية ودلالات لغوية وقيما صوتية واضحة عندنا بجميع أبعادها، ومن ثم رتبنا المصطلحات على الشكل التالي :

1- **المصطلح الموضوع**
2- **المصطلح المترجم**
3- **المصطلح المعرب**، وقد جعلناه في المرتبة الأخيرة لأنه لا يستخدم إلا في الضرورة القصوى.

ولابأس-مادمنا في مرحلة النهضة- أن نعتمد المصطلحات الغربية، ولكن المترجمةالتي برهنت على العطاء والإثراء، لا المعربة التي تبقي على الصيغ كما هي جامدة لا يفهم ظلالها الا من

صار -لكثرة الاشتغال باللغات الأجنبية- كواحد من أهل ذلك اللسان، وربما وجدناه يدافع عن الحضارة التي تأثر بها دفاع المستميت (18) وكذلك حال الذين ذابوا في الفضاء الفكري الذي ولدت فيه تلك المصطلحات.

بناء على ذلك نريد أن نعالج هنا مشكلة الانفتاح التي طرحها بشكل أساسي الناقد المغربي محمد إقبال عروي، فقد لاحظ : أن تجربة المصطلح النقدي لدى النقاد الإسلاميين منطلقة في خطواتها الأولى، ولم تبلغ الآفاق المرجوة بعد، وأن قضية المصطلح تقوم بدور بارز في مجال النقد الأدبي وأن حساسية المصطلحات تزدادمع تبني كل الاتجاهات الأدبية لمصطلحاتها الخاصة وادعاء الاستقلالية(19)، ولكنه مع شعوره بذلك فإنه "يعتبر المصطلحات الأدبية قضية لا تقتصر على اتجاه دون آخر، ومن حق النقد -أي نقد- أن يستفيد منها ويوظفها أثناء مقارباته النقدية" ...إن الانفتاح لا يخل بمبدأ الاستقلالية بل يعطيه أبعادا إنسانية جديدة، يعطيه التفاعل الإنساني".(20)

ومعنى ذلك أنه يدعو إلى الانفتاح على المصطلحات النقدية في كافة الاتجاهات النقدية، ولكن من الواضح أن الانفتاح على المصطلحات في مجال النقد الأدبي قد يتساهل فيه، أما في المصطلحات المتعلقة بالعلوم الانسانية بصفة عامة، فأمر يحتاج إلى نظر للأسباب العقدية والفكرية التي أشرنا إليها من قبل.

ولعل محمد إقبال عروي قد تجرأ على أن يستخدم المصطلحات الغربية مثل : "ثيمة Théme " كما في قوله : "وحاولنا أن نضع أيدينا على "ثيمة" الصراع التي جمعت سائر خيوط الشخصيات "(21) وفي قوله :"إن الصراع بين الاسلام والشيوعية أصبح يشكل "ثيمة" "Théme" في الأدب الاسلامي"(22) وهو يعلم أن ناقدا مستغربا -إن لم نقل يقطر بالأيديولوجية الغربية الماركسية- قد عالج بموضوعية هذا المصطلح (Thème) وبين أن هذا الإصطلاح كان انطباعيا الى حد بعيد استعمله ج،ب ويبر في معنى خاص مطلقا إياه على الصورة الملحة المتفردة "الموجودة في عمل كاتب ما " (23) وبين نتيجة لذلك، ونتيجة لارتباط المصطلح بالحقل المعرفي، أن استخدام المصطلح بنفس الصيغة التي ورد بها عند أهله غير نافع. فقال : "

وإذا كانت تعريفات الحقل الثقافي لأدب ما، كيفما كانت وطنيته، تمتلك ما يدعم الموضوعاتي على المستوى المعجمي والسيميائي فإن الانتقال الى الحقل الثقافي العربي يجعلنا نتردد بين الاحتفاظ بالمصطلح كما هو في لغته : "التيمة/التيمية/التيمياتية thème)- thématique-thématiser) أو اعتماد التعريب العربي (يقصد الترجمة) : الموضوعاتي /الموضوعاتية/الموضوعاتيات، وهي تعريبات يدعمها في غالب الأحيان الأصل الأجنبي ...هذا ما دفعنا إلى اختيار تعريب المصطلح مع التشديد على الأصل المرجعي وبذلك يصبح مفهوم الموضوعاتي في الحقلين العربي والغربي وهو التردد المستمر لفكرة ما أو صورة ما ".(24)

فلقد تبين أن الانفتاح بهذا الشكل له خطره المتعلق"بالفضاء الفكري الطبيعي" الذي ولد فيه المصطلح، بنفس المقدار الذي يملكه في "الفضاء الفكري الطبيعي" أو الحقل الثقافي الذي ترجم إليه أو عرب فيه.

ولعل هذا يبين أن ما ذهب إليه عروي -من أن الانفتاح يعطي الأبعاد الانسانية والتفاعل، ويمكن من الاستفادة والاضافة على أساس أن شأن المصطلح شأن العلوم الطبيعية نفسها، وأنه أكثر من ذلك يعطي بعد "الاتقان"- (25) لا أساس له من الصحة، ولو كان ذلك صحيحا لكان النقد القديم، والنصوص الفلسفية، قد استفادت من المصطلحات اليونانية التي وصلتها عن طريق التعريب للنص اليوناني القديم* ويمكن لمن يقرأ للفلاسفة المسلمين في هذا المجال أن يدرك ذلك بسهولة، لا سيما حين يخرج من القراءة منهوك القوى مضطرب الفكر يردد كلمات لا يعلم لها معنى مثل : (طراغوديا - قوموذيا - أيامبو - دراماطا ...).(26)

إذن فمن الغريب أن نرى الدفاع عن الانفتاح من ناقد إسلامي على هذا المستوى من الادراك للنقد وأبعاده وأدواته ولا سيما حين يحاول أن يبرر بالاستفادة والاضافة والاتقان، ويوهمنا أن " الزهد في المعطيات الغربية على مستوى المصطلح النقدي، أدى إلى الطريق المسدود، أصبح من اليسر أن ندرك التشابه التام بين الأعمال النقدية رغم المسافة الفاصلة بينها زمنياً ومكانياً، وهذه السلبية أن تكون في صالح الأدب ونقده بل إنها علامة ضعف، وإنذار بالسقوط في

محيطات السطحية والضحاله "(27) بل ويوهمنا كذلك أن "معظم المصطلحات النقدية المنتمية إلى النقد الغربي تجد جذورها في النقد القديم ".(28)

لقد كان ممكنا لهذا الوهم أن يجد القبول لو أن التجربة التي قام بها النقد العربي مع النقد الغربي قديمه وحديثه، قد أثمرت على مستوى المصطلح وأدت إلى استعياب حقيقي، ساعد على الابداع والكشف، ولكن لا شيء من ذلك قد تم، أفلا ترى أن الذي أبدع قديما فعلا هم أئمة الفقه، وعبد القاهر الجرجاني في البلاغة، والشاطبي في المقاصد، وابن خلدون في التاريخ وعلم الاجتماع؟ وهل كان هؤلاء قادرين على أن يصنعوا ذلك لو لم ينطلقوا من الأصالة من بحوث من سبقوهم ومصطلحاتهم؟

إن هناك فرقا بين أن تنفتح على الفكر الغربي وتطلع على مناهجه وعلومه لتستفيد، وبين أن تتبنى مصطلحاته متجاهلا فضاءها الفكري وظلالها وأشعاعاتها التي بيدها زمام أمور الإبداع والابتكار والتجديد والإضافة والإتقان .

ثم إن ما يعتقده هذا الناقد من أن جذورا في النقد العربي توجد لها صورة مشابهة في النقد الغربي مما يبرر استخدامها، فذلك من طبائع الأشياء لأن موضوع أي معرفة عند جميع الأمم هو الذي يحدد طبيعة المصطلح المستخدم، فالمصطلحات ترتبط ضرورة بموضعاتها، فلا عجب أن نجد ذلك وما هو أهم وأخطر من ذلك، ولكن هذا شيء والانفتاح بالطريقة التي جربها مع مصطلح "التيمة" شيء آخر .

إن محمد إقبال عروي حين كان يعرض لقضية الانفتاح لم يكن على جهل بعلاقة المصطلح بالفضاء الفكري، فقد كان يقول: " وقد يعترض أحدهم على هذا التفسير المعطى لقضية التفاعل والاستفادة بالنسبة للمصطلح النقدي العالمي مبررا اعتراضه أن المصطلح، أي مصطلح، لا يمكن فصله بأي حال من الاحوال عن المنظومة الفكرية والفلسفية للمحيط الذي تولد فيه واكتسب ملامحه النهائية وإدخاله في محيط آخر غريب عنه وإلا فقد خصوصيته ومعناه، وانزاح بالتالي جهة التأويلات المغلوطة والاستعمالات الخاطئة ... وهذا اعتراض يقوم على افتراض الصبيانية والسذاجة أثناء التعامل من جهة وعلى الآلية الصارمة من جهة أخرى.(29)

وإذن : فهذا يعني أنه يعتمد العناد،لا المنطق العلمي، ولو أنه فكر مليا في قضية الانفتاح بالشكل الذي يراه، وهو تعريب المصطلحات، أوجد أن مصطلحات كثيرة معربة مثل التي رأينا عند القدماء لم تقدم لنا شيئا، ومثلها التي تملأ بطون الكتب مثل :

(السيكولوجيا- السوسيولوجيا - التيمة - استراتيجيا - ....)

وأن الذين يستخدمونها إنما يتعاملون معها ليس فقط بصبيانية وسذاجة ولكن يتعاملون معها، بالجمود والتبعية، ولو أن الناقد قارن بين صورة استعماله لمصطلح "التمية" وصور استعماله لمصطلح الأسلبة "La Stylisation" مثلا لأدرك أي فرق بين أن تنطلق من مرجعية متينة تمثل فضاءك الفكري الطبيعي، وأن تنطلق من مرجعية أنت فيها كالفقاعة فوق الماء سرعان ما تزول لأنها مرجعية تمثل فضاءك الفكري الصناعي الذي فرضته عليك الظروف، وشتان ما بين الفضاء الطبيعي والصناعي؛ لأن الأول كما يقول ابن خلدون " هو الذي فطرت عليه ".(30)

ولعلنا حين ندرك ذلك نعرف لماذا يلح نجيب الكيلاني على البحث عن "مصطلحات لها ارتباط وثيق بتراثنا، وبالتجارب الأدبية والتاريخية التي مرت بنا، وبالعقيدة التي نؤمن بها، بدلا من العيش في ظل المصطلحات الأجنبية المستوردة التي كان لها أعمق وأخطر الأثر في انحراف مسيرتنا "(31)، وندرك كذلك لماذا عدل محمود السعر ان عن استخدام المصطلح المعرب إلى المصطلح المترجم وآثر في الوقت الذي لا يجد فيه المقابل العربي الملائم أن يستعمل المصطلح الأروبي، " وذلك كي لا يختلط التصور العربي القديم بالتصور الأروبي الحديث ".(32)

وللسبب نفسه كانت النتيجة التي توصل إليها محمد بدري عبد الجليل في قوله:

" ومن ثم فلم يكن هناك بد من التعرف على ظروف المصطلح بما هي مقاصد وبما هي تحديد لفترة تحول دلالي وفق جهة من الجهات داخل إطار معين ".(33)

نماذج للمصطلحات المستخدمة في العلوم الإنسانية :

إن المصطلحات الموظفة في العلوم

الإنسانية يمكن تقسيمها إلى أربعة أنواع :

1. **مصطلحات مأخوذة من التراث**
2. **مصطلحات موضوعة**
3. **مصطلحات غربية مترجمة**
4. **مصطلحات غربية معربة**

وسوف لن نفصل الحديث فيها، ,إنما سنعتمد هنا فقط على بعض النماذج التي تبين أثر الخلفيات الفكرية للمصطلحات؛ سواء بالنسبة للباث المرسل، أو بالنسبة للمتلقي، ففي جميع الأحوال يستخدم المصطلح مرتبطا بالفضاء الفكري ارتباطاً وثيقاً .

ولكي نبين ذلك، سنعتمد أسلوب المخططات والرسوم، لا سيما ما يمكن أن نسميه :

" العناقد الاصطلاحية المرتبطة بالعقائد والأفكار "، مثل مصطلح "الإمامة"، ومصطلح "التأويل" ومصطلح "الإبداع" ومصطلح "الحرية" ...

على أننا ينبغي أن نشير قبل ذلك إلى أن المصطلح - في كل أحواله المشار إليها سابقا - يرتبط بالمجال الثقافي والفكري الذي أنتج فيه، وعليه فإن مما يترتب على ذلك بروز ظاهرتي : الغموض أحيانا، والتبعية أخرى، إذ أن **للفضاءات الثقافية والفكرية قدرة عجيبة على الجذب المغناطيسي نحو الثابت فيها:**

ولئن كان ليس من السهل - كما يقول أبو حيان التوحيدي - استحداث لغة في لغة مقررة بين أهلها، فإن ذلك يعني حتمية الغموض وضعف لغة التواصل كلما استخدمت المصطلحات مرتبطة بمجال ثقافي معين أو مجال فكري معين في إطار نفس الثقافة .

نماذج من المصطلحات :

لكي تتضح الفكرة التي نحن بصدد الحديث في مشكلاتها المعقدة، دعنا نضرب لذلك أمثلة لنماذج مختلفة من المصطلحات.

ولعل من المفيد أن نبدأ بالمصطلحات التي تعد مشتركة بين جميع المعارف، أعني تلك التي تتصف بالعموم، مثل مصطلح "الإبداع" ومصطلح "الجمال" ومصطلح "العلم" ومصطلح "السنة" ومصطلح "الحرية" ومصطلح "التأويل" على أن دراستنا لبعض هذه المصطلحات ستكون ضمن ملاحظات عامة نجمت عن اختلاف الخلفيات الثقافية والفكرية التي توظف في ظلها هذه المصطلحات.

1. **الإبداع** : هذا المصطلح "يعبر عن موقف ما، وقد يصادفه كثير من الصعوبات حينما يطلق على الثقافة العربية، والثقافات العالمية الأخرى قبل العصور الحديثة والمعاصرة، فإذا ما تبينا مفهوم هذا المصطلح، واستطعنا أن نستخلص مقاييس له، وهذا شيء صعب، وحاولنا أن نحاكم الآداب العربية الاسلامية مثلا في ضوئه فان غالبيتها تصبح لاغية وغير ذات موضوع، فهذا المفهوم الذي نروج له هو وليد ذلك السياق الثقافي المشار إليه وهو ليس مجمعا عليه في الآداب الغربية نفسها، وقد تزداد نسبيته إذا ما نظر اليه من زاوية الموروث، وليس ذلك بضائر للثقافة العربية الاسلامية الا اذا حوكمت من قبل مفاهيم وتصورات ومسلمات المركزية الاوروبية الحديثة و المعاصرة "(34). إن مصطلح الإبداع على الرغم من شيوعه بين جميع الثقافات العالمية فإنه لم يستقر على حال واحدة؛ والسبب في ذلك هو اختلاف الخلفيات الفكرية المتحكمة في ظلال دلالته، بحيث يصبح مصطلح الإبداع عند التيارات الرومانسية والرمزية والدادية والاتجاهات اللاعقلانية يعني "الإبداع المطلق"(35) الذي لا يقبل أي قيد، بينما يعني عند السيكولوجيين قوة يمكن إدراكها كنتيجة لتداخل اللغة الإجتماعية والكلام الفردي، ويعني أحيانا إمكانية نظام دال في إبداع وحدات جديدة انطلاقا من كود موجود مسبقا(36) ، ويعني الابتكار كما يعني التجديد ويعني قوة التخيل التي توحي بصورة غير موجودة للأشياء بحيث يعمل رجل التكنولوجيا من بعد على تجسيم تلك الصورة في واقع محسوس يتمثل في جهاز من الأجهزة.

وهكذا نجد المصطلح يأخذ معاني مختلفة بحسب الفضاء الفكري الذي يعمل فيه وينشط من خلاله كما يتضح في الشكل (1).

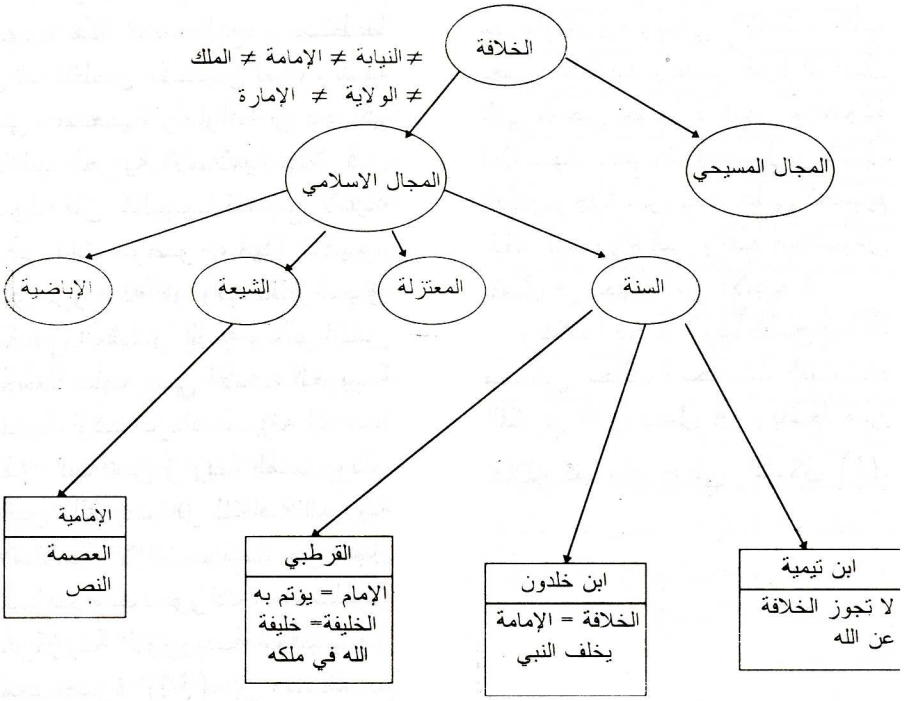
الخلافة
≠ النيابة ≠ الإمامة ≠ الملك
≠ الولاية ≠ الإمارة
المجال الاسلامي
المجال المسيحي
الإباضية
الشيعة
المعتزلة
السنة
الإمامية
العصمة
النص
القرطبي
الإمام = يؤتم به
الخليفة= خليفة
الله في ملكه
ابن خلدون
الخلافة = الإمامة
يخلف النبي
ابن تيمية
لا تجوز الخلافة
عن الله

نتائج اختلافات الخلفيات الثقافية والفكرية، وانعكاساتها على المصطلح :

لقد كان للاختلافات الفكرية باعتبارها خلفيات أساسية لفعالية المصطلح وحيويته عدة نتائج هامة منها :

1. استخدام المصطلح الواحد في معان مختلفة بحيث يتحتم على القارئ الذي يرغب في الفهم الدقيق أن يتأكد من الأصول الثقافية والاتجاهات الفكرية لمن يقرأ لهم أو يستمع إليهم، فمصطلح (السنة) مثلا قد استعمل "في معان كثيرة متقاربة، وعلى حد تعبير الدكتور "الجوابي" : لقد خصها كل فريق من علماء التشريع الإسلامي بمدلول خاص يناسب تخصصهم فكان منهم من غايته إثبات كل ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وتصحيحه ليقتدى به، وهم المحدثون، وكان منهم من هدفه البحث عن الجانب التشريعي فيها ليستنبط منه الأحكام، وهم علماء أصول الفقه، ومنهم من بحثوا عما كان من المأثورات ليس فرضا ولا واجبا بل سنة، وهم الفقهاء، والسنة عند جمهور المحدثين مرادفة للحديث وتعريفها هو تعريفه".(37)

وقد عد الدكتور/الجوابي من معاني مصطلح السنة أربعة عشر مصطلحا كلها مستعملة(38)، ولاشك أن هذه المعاني متقاربة، لكونها قد أخذت كلها عن الحديث، ولكن المشكلة في اختلاف المفهوم بعد ذلك؛ إذ وظف المصطلح أحيانا في المجال السياسي أو العقدي فكان مصطلح (السنة) في مقابل مصطلح (الشيعة) ووظف أخرى في مجال الحفاظ على الأصالة فكانت السنة في مقابل البدعة، واستعمل أيضا في مجال آخر للدلالة على القوانين الكونية أو الاجتماعية.

وما يقال عن مصطلح "السنة" يقال عن كثير من المصطلحات الأخرى مثل مصطلح "الأصالة" التي ترد بالمعنى الحضاري لتعبر عن ارتباط إبداع وجهد الإنسان بحضارة أمته، كما ترد بالمعنى الفرادي لتعبر عن تميز الشخص بإبداعه عن بقية الأشخاص الذين أبدعوا في مجال إبداعه.

ولاشك أن فهم دلالة المصطلح تتوقف على فهم المجال المغناطيسي الذي استخدمت فيه والسياق الفكري أو الحضاري الذي وظفت فيه، وإلا فإن من العبث محاولة فهمه.

2. ضرورة الفهم وفق مقاصد الكاتب : ربما كان هذا ما كان يعنيه بعض كبار العلماء والمفكرين الذين أدركوا قيمة التدقيق في تحديد المصطلحات؛ حينما كانوا يشترطون في الحوار تحديد المصطلحات* ، إذ هم في الواقع يطلبون عدم الخلط بين مايشبه المجالات المغناطيسية للفكر والعقائد لإرتباط دلالة المصطلح بها ارتباطا وثيقا، مما جعلنا نميل الى اعتبار المصطلح حمال أوجه.

فلو أن قارئا يحاول أن يفهم معنى "الحرية" في مجال الفكر الاشتراكي دون وعي كامل بفلسفة الاشتراكيين لتعب في ذلك دون جدوى، وقل مثل ذلك في الحرية في الفلسفات الغربية الليبرالية، و دلالاتها في الثقافة الإسلامية شديدة الاختلاف جداً .

نعم إن المصطلحات العلمية وضعت أساسا لتتضح مدلولات الكلمات، ويكشف الغطاء عن المعاني المتداولة في الكتب على اختلاف تخصصاتها(39)؛ ولكن الفهم والوضوح والانكشاف أمور تتوقف على فهم المجال المغناطيسي الذي يتحكم في فكر الكاتب، وإلا تباينت الفهوم واختلت رسالة التوصيل؛ خاصة في الوقت الذي يكون موظف المصطلح يقصد من وراء ذلك تمييع دلالة مصطلح من المصطلحات؛ لظهوره مسبقا في مجال فكري أو عقدي يعاديه.

ولذلك كانت معظم المصطلحات ذات الطابع الأيديولوجي التي أنتجت في فترة الصراع بين المعسكر الإشتراكي والمعسكر الليبرالي خاضعة بالضرورة لردود الأفعال التي تستهدف تمييع الدلالة لتوافق اتجاها معينا، وقد انطلى الأمر على بعض الكتاب الاسلاميين فكتبوا تحت مصطلحات مثل (الإشتراكية والإسلام - الديمقراطية والإسلام-)، حتى إن بعضهم عدَّ جهلا الإشتراكية من القرآن.

3. التأويل البعيد عند اختلاف الأهداف والعقائد : ولهذا السبب وجدنا اختلافا كبيرا بين العلماء في تفسير بعض النصوص التي تحمل دلالة معينة، يمكن أن تستغل لأغراض سياسية، ولعل من يمعن النظر في تفسير الشيعة ولا سيما المغالية منها والسنة ولا سيما المتطرفة منها لبعض الألفاظ الواردة في الحديث النبوي

* - و مثال ذلك مالك بن نبي و دوسيسير

الشريف يكتشف بيسر حركة التأويل البعيد للمصطلح،

ولعل قراءة تفسيرهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا، كتاب الله و سنتي"(40) تبين آثار العقائد في اختلاف تأويل مصطلح السنة.

والأمر لا يختلف كثيرا في الصراع الدائر بين المعسكرين البارزين في القرن العشرين، ففي الوقت الذي يرى الليبراليون أن مصطلح "الحرية" يعني تخلي الدولة عن ممارسة الصناعة أو التجارة نجد أن تأويل المصطلح في المجتمع الإشتراكي يؤول بمصطلح "الحرية" ليعني وعي الإنسان لسير التاريخ، والسير في اتجاهه، ويترتب على ذلك وجوب سيطرة الدولة على كل شيء؛ لإلغاء الحرية الفردية في مقابل وجوب سيطرة الفرد القوي لاستغلال الفرد الضعيف، وهكذا تتيه العقول في فهم حقيقة المصطلح وما يرمي إليه.

4. تفخيخ المصطلح إما للترويج له وإما للتعتيم عليه :

وقد يتضح ذلك في المسلك الذي يستخدمه الغرب مع المجتمعات التي يسيطر عليها بأي صورة من الصور ومن أمثلة ذلك الترويج الذي استخدمته الثقافة الفرنسية لكلمة "الاستعمار" التي توحي بالعمران والمدنية لتبرر سيطرتها ونفوذها العسكري، وقد انتبه لذلك المرحوم مولود قاسم وصاغ مصطلحا جديدا من موقع الدفاع هو مصطلح "الاستدمار" ولكن اذا كانت دلالة مصطلح الاستعمار قد فهمت في الأوساط الأمية بأنها تعني الاستيلاء والسيطرة فإن ذلك كان بسبب جهلهم لأصول دلالة كلمة استعمر كما جاءت في القرآن واستغلها المستشرقون وهم يبشرون بقدوم سلطانهم استغلالا كبيرا بفهمهم لها فهما عميقا.

ويمكن أن نشير كذلك للمصطلح المتداول في الأوساط الشعبية للدلالة على الكافر إذ يعبرون عنه بـ "القاوري" فقد استغلت بعد أن فرغت من محتوى الكفر لتعبر عن الرجل الأنيق الذي يمارس المساوئ في مظهر أنيق وبراق.

5. مرحلة الخبث في وضع المصطلحات المعاصرة :

لعل هذه النية الخبيثة التي تبينت من وراء وضع المصطلحات في سياقات مختلفة أيديولوجية ونفسية وسياسية وفكرية لم تكن جديدة، ولكن الذي يهمنا هنا هو تأكيد ميشال فوكو

في كتابه "جينالوجيا المعرفة" على مرحلة معينة حددها انطلاقا من فرويد وماركس ونيتشه اذ عد الدليل (المصطلح)بدءا من هؤلاء الأشرار وخبيثا، إذ يقصد فيه الى تغيير الدلالات قصدا يقول : "إن القول بأن التأويل يسبق الدليل ويتقدمه يفترض أن الدليل ليس كائنا بسيطا (طيبا) مثلما كانت الحال خلال القرن السادس عشر، حيث كانت غزارة الدلائل والعلامات ووجود تشابه بين الأشياء دليلين على طيبة (...) ولم يكونا ليفصلا الدليل عن فحواه إلا عن طريق حجاب شفاف، وعلى العكس من ذلك يبدو لي أنه انطلاقا من فرويد وماركس ونيتشه سيصبح الدليل شريرا خبيثا وسيتخلى عن طيبته، أعني أنه أصبح يضمر بكيفية غامضة نوعا من سوء النية، وهذا بمقدار ما أن الدليل تأويل لا يعطي نفسه ولا يقدمها على أنها كذلك".

وحينما نقول إن الدليل بعد هؤلاء الثلاثة صار يخفي نية خبيثة فإننا في الواقع نؤكد أن الدليل أو المصطلح صار يوظف توظيفا غير علمي وذلك خدمة لأيديولوجية معينة تحمل خلفها ما تحمل من أهداف وغايات، رأينا بعضها في مصطلح شعبي هو (القاوري) ورأيناه في مصطلح الاستعمار.

6. دور الانحراف الفكري في العدول المصطلحي :

حينما يقرأ المرء كتابا مثل كتاب "**الثابت والمتحول**" لأدونيس فإنه سرعان ما يشعر بطريقة غير مألوفة في استخدام المصطلحات التراثية إذ تفسر أحيانا وتوظف أخرى بطريقة تنحرف بالدلالة نحو التفكير الغربي، ولا شك أن هذا عدول، ونحن لسنا ضد العدول من حيث هو ظاهرة لغوية راقية، ولكن نكون ضد تحريف الدلالة عن المقصد الذي يرمي إليه الكاتب، لأن ذلك ينطق الكاتب أو الشاعر أو الناقد بما لم يقل، وإن المرء ليعجب من طريقة فهمه وتأويله لمصطلحي "الشر" و"الليونة" في نص الأصمعي "الشعر نكد بابه الشر اذا دخل في الخير لان" (42) فقد اعتبر الليونة دليلا على ضعف الشعر الاسلامي كما اعتبر الخير تعبيرا عن الخير المادي، وعد الشر تعبيرا عن الغريزة الجنسية خاصة، والأمر ليس كذلك لأن الأصمعي لم يكن أبدا يحمّل المصطلحات هذه الأيديولوجيات التي يحملها قارئ القرن العشرين بعد أن تشبّع بفلسفة الغرب.

ولاشك أن ذلك خطأ، اذ التأويل - كما يقول الشيخ القرضاوي- يقوم دائما على خلفية معرفية متعددة الآليات؛ مما يفرض التعرض لتلك الآليات التي تتحكم في ذهن المسؤول، لأن معرفة الآليات يحدد الضوابط العلمية المتحكمة في ذلك.(43)

7. فقدان حيوية المصطلح :

إن للمصطلحات بحكم كونها مظهرا من مظاهر الوحدة الذهنية والثقافية للأمة (44)حيوية خاصة تتميز بها ما دامت في مجالها الثقافي؛ لكن في حالة خروجها عن المجال الثقافي الذي نضجت فيه واستمدت من لغته القومية مشاعرها وأبعادها تفقد تلك الحيوية، وتصبح جسدا هامدا لا روح فيه؛ لا يزيد عن الدلالة العادية التي لا تفهم بعض الفهم إلا عند من غاص في ثقافة الأمة التي نقل منها المصطلح.

والخلاصة :

بعد كل هذا، أليس من البديهي القول : إن المصطلحات تحمل مخزونا فكريا دائما، وإن هذا المخزون الفكري يعمل على مستويين: مستوى توظيفه في حالة الكتابة، ومستوى محاولة فهمه عند القراءة من غير كاتبه ؟ وإن هذا الأمر يدفعنا إلى التحري في حالة توظيف المصطلح وفي حالة قراءته دفعا كبيرا، لا سيما بعد أن رأينا أثر الاختلاف الفكري والايديولوجي والعقدي، والمذهبي في تأويل دلالة المصطلح، وبعدان رأينا كيف تتعدد طرق استخدام المصطلح الواحد، وكيف نضطر إلى فهم المقاصد من خلال معرفتنا بأصول فكر كاتب ما لتحكم ذلك في دلالات المصطلح، وكيف صار تأويل المصطلح خاضعا لتلك الخلفيات بغض النظر عن صحتها او مرضها، وكيف تفخخ المصطلحات وكيف تفقد حيويتها حين تخرج من مدارها.

وعلينا إذا ما رغبنا فعلا في تعلم طريقة استخدام المصطلح ليكون دالا وحيويا وقادرا على التوصيل والعطاء أن تتخذ المصطلح القرآني نموذجا نهتدي بهديه في الدقة، وقد فعل خيرا الباحث محمد شحرور حينما بحث مسألة دقة المصطلح القرآني (45)، فقدم لنا بذلك خير نموذج لانضباط المصطلح.

الهوامش

1- ابن القيم الجوزية : شفاء العليل ، ص 85.

2- الفارابي : كتاب الموسيقى الكبير، ص 1178 .

3- غرنباوم : دراسات في الأدب العربي، ص 63 .
4- الجابري : تكوين العقل العربي، ص 76-77 .
5- مدخل إلى الأدب الإسلامي، 148 .
6- طه عبد الرحمن : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 21 .
7- ابن جني : الخصائص، 33/1 .
8- ابن خلدون : المقدمة، ج2 ص 1035 .
9- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 21 .
10- الكيلاني : مدخل إلى الأدب الإسلامين ص 142 .
11- في أصول الحوار، ص 19 .
12- جاء ذلك في حوار أجرته معه صحيفة النصر الجزائرية يوم 31 ماين 19 جوان 1989 .
13- على العشي : مساهمة في التعريف بالسيميائية الأدبية، ص 163-164 (مقال) - مجلة الحياة الثقافة التونسية، ع 36-37 سنة 1985 .
14- حسن ضاضا : كلام العرب، من قضايا اللغة العربية، ص 90-91 .
15- علي شلش : (مقال) رومانسي ورومانتيكي، ص57 مجلة الفيصل، عدد 61.
16- نفسه .
17- نفسه /58 .
18- نفسه .
19- سمعت في خطاب مسجل للرئيس الراحل هواري بومدين يتحدث عن رئيس عربي متفرنس قائلا : " ليس له من إفريقيا إلا البشرة السوداء " .
20- جماليات الأدب الإسلامي، ص 229 .
21- نفسه .
22- استراتيجية النقد الإسلامي، ص 114 .
23- جمالية الأدب الإسلامي، ص 203 .
24- سعيد علوش : النقد الموضوعاتي، ص 11 شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط .
25- جمالية الأدب الإسلامي، ص 230-229 .
26- ابن سينا : فن الشعر من كتاب "الشفا" ضمن كتاب "فن الشعر" لأرسطو ترجمة بدوي، ص 159 .
27- جمالية الأدب الإسلامي، ص 230 .
28- نفسه/230 .
29- نفسه/231 .
30- المقدمة ج2، ص 1035 .
31- مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص147 .
32- محمد بدري عبد الجليل : المجاز وأثره في الدرس اللغوي، ص 146 .
33- نفسه/147 .
34- أبو حيان التوحيدي : الامتاع والمؤانسة 122/1.
35- محمد مفتاح : دور المعرفة والخلفية في الابداع والتحليل ص 87 مجلة دراسات سيميائية أدبية ع : 1992/6- المغرب.
36- نفسه ص 87.
37- سعيد علوش : معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ص 46.
38- الجوابي : معاني السنة من خلال ورودها عن النبي صلى الله عليه وسلم

وصحابته، مجلة :الموافقات ع : 2 ص 233 - 1413= 1993 .
39- نفسه ص 233.
40- رضوان بن غربية :نشأة المصطلحات العلمية: مجلة الموافقات، ع2 ،ص 210، سنة 1413هـ/1993م.
41-الجامع الصحيح.
42- ميشال فوكو : جينالوجيا المعرفة، ص40 ترجمة عبد السلام سعيد.
43- ابن قتيبة : الشعر و الشعراء، ص
44- القرضاوي : المرجعية العليا، ص 216.
45-فاضل ثامر: اللغة الثانية ، ص 170.
46- محمد شحرور : القرآن والكتاب ، ص713.